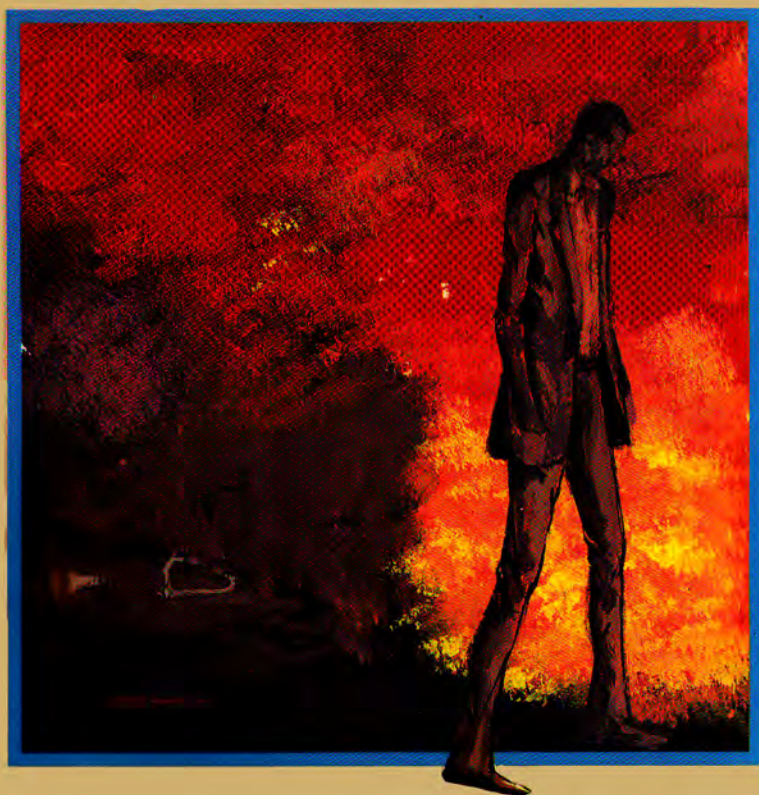


هَذَا كِتَابٌ مِّنْ كِتَابِ اللَّهِ

حَدَّثَ أَبُو الْفَرَجِ الطَّيِّبُ



مَدْرَسَةُ
أَبِي الْفَرْجِ الطَّيِّبِ

الفن والفنانون

مجلد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى - السام : ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م

لِلَّهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

حَدَّثَ
أَبُو الْفَرَجِ الطَّبِيبُ

اللَّهُمَّ ..

اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ ..

وَاللَّهُمَّ ..

وَاللَّهُمَّ ..

هَٰذَا سُرَّتِي رَبِّي بِرَيْسِ سَنَاتِي مِي عَمْرِي

مَوْلَا صَاحِبِ لِي عَلَى نَفْسِ حَمِيدَةٍ ..

اللَّهُمَّ سَيِّدِي لِي فِي الْفَقْرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

جرس .. يعلن عن الفدوى ..

بقلم : حسن حميد

- ١ -

أودّ ، بدايةً ، أن أصارح القارئ أنني أقدم لكتاب أعرفه ، وقد
فرغتُ تَوّاً من قراءته ، ولكاتب لا أعرف عنه سوى أمر واحد يتعلق
بمهنّته كطبيب للعيون ، ولهذا فإنّ حديثي سيكون منصّباً على مادة
الكتاب معنّى ومبنيّ معاً .

لفتت انتباهي أمور عديدة ، وأنا أقرأ هذا الكتاب ، في طالعها
تَمَكَّنُ المؤلف من أدواته ، وخصوصاً ناصية الجملة العربية
الواضحة المتماسكة وذات الإيقاع والتأثير ، وهذه ميزة تسجل له ،
يضاف إليها قدرة جملته على الاستيعاء ، والتأويل وترك الظلال
على الرغم من كثافتها البادية ، واستهدافها للتقنين وعدم الإفاضة ،
لا بل إن الكثافة ، وشدة الاختزال تكاد تشمل جميع الأحاديث التي
تضمنها الكتاب ، فهي تتميز بالرشاقة ، وسرعة الوصول إلى الهدف
مباشرة ، وتأدية المعنى ، دون أن تفقد من جمالية البلاغة ، وعلو
الرتبة اللغوية شيئاً في غالب الأحيان .

أمر آخر لفت انتباهي في هذا الكتاب يتمثل في قدرة المؤلف
على تطويع اللغة لتكون مناسبة لكلِّ مقام ، فأحاديث الحبيبة
(واحة) اتسمت باللوعة ، والفقد ، والحنين ، والعاطفة
المتقدة ، والروح العطشى ، واللوبان الحائر ، والتخوف من قابل
الأيام وما تحمله .

أما الأمر الثالث فيتجلى في الأرضية التراثية الفنية التي فرشها المؤلف كمهاد لكل أحاديثه ، فاستلّ من نصوص التراث العربي القديم الأصلية روحها ، ومعانيها ، وتواشيها ، وزخرفها ، وأساليب الطيّ ، والالتفات ، والمداورة ، والعطف ، والترك ، والاسترسال ، والقطع . . . الخ وبثّها جميعاً بين تضاعيف أحاديثه ، حتى لكان القارئ يتوهم ، أحياناً ، أنّه حيال نص تراثي كُتب في بدايات التدوين العربي ، وهذه ميزة أخرى تضاف إلى الأحاديث ، فتمنحها حضوراً مشتهى في زمن فراغ الجمل من معانيها ، والأساليب من جمالياتها ، والبلاغة من روعتها ، والأحداث من أسرها وسحرها . وما فات المؤلف أن يُطعم أحاديثه الحائرة بالقول الحكيم ، والمثل السائر ، والأشعار المناسبة ، أو الآيات القرآنية الداعمة ، وما روي عن النبي الكريم ﷺ ، من كلام أو سلوك . لكل هذا نحن إزاء نص مركب له روح واحدة مقسومة على لوحات عدة سمّاها المؤلف (الأحاديث) .

أمر آخر شدّ انتباهي في النصوص يتمثل في قدرة المؤلف على استبطان المشاعر ، والسلوك ، والأقوال ، حيث تنهض الثنائيات وتبدو مثل الطراوة واليباس ، والجمال والقبح ، والخير والشر ، والقبول والصدود ، والرهافة والخشونة ، والحضور والغياب ، والوضوح والغموض . . وهكذا إلى أن تتجلى الشخصية المحورية في العمل (واحدة) بجميع وجوها وكأن الثنائيات المتضادة والمتنافرة مرايا للسلوك ، والقول ، مرايا للبدو والإضمار معاً .

- ٢ -

وحسبي القول ،

إن هذه النصوص ليست رواية ، ولا قصة ، ولا حوارات ، خارجية أو داخلية ، كما أنها ليست شعراً ، وإنما هي نصوص تتجسد فيها ماهيات هذه الفنون كلها ، لا بل إن فيها ألواناً مستلّة

من عالم الفن التشكيلي ، كما فيها موسيقى مأخوذة من الغدران ،
وحفيف الشجر ، ورنين الأساور ، أو همس عيدان القصب ؛ تلك
الماهيات هي التي أعطت لهذه النصوص وجدها ، وروحها العاشقة
الولهي التي أتعبها الدوران ، والتذكر ، والاستعطاف . . بل التي
دوّختها إيقاعات الكلام .

- ٣ -

وبعد ،

إنني ، ودون معرفة للمؤلف ، وهذا ما يحزنني حقاً . . أفتح
ذراعي على وسعهما ترحيباً بأديب له قلم جاد ، وأسلوب نابض ،
وصياغة باهرة ، وروح أدبية قلما نقع عليها في أيامنا الراهنة .
وأسعى لأن تكون كلماتي هذه جرساً يعلو برنينه منبهاً لظهور كاتب
سيكون له شأنه المتفرد في عالم الأدب .

الشام / أيار / ٢٠٠٠

حسن حميد

مَدْرَسَ
أَبِي الْغَزْزِ الطَّيِّبِ

مدخل

هذا كتابُ كنتُ قد كتبتُ مُعظَمَهُ في ليالي صباي الأولِ ،
مُنَجَّمًا ، على حسب ما يجدُّ لي ، من عشقٍ ، أو رجاءٍ ، أو خيبةٍ
أمل . . .

ثم ارتحلتُ إلى بريطانيا أكْمِلُ تحصيلي في طبِّ العيون وقد
ذهبتُ عني سبعُ وعشرون من السنين . . . وبقي الدفتر الذي كنتُ
أكتبُ عليه في بيتنا في دمشق .

وانقضتُ عني سبعُ سنينَ هناك عدتُ خلالها إلى دمشقَ
مرتين . . ونسيتُ ما كتبتُ . . . حتى إذا كان العودُ الأخيرُ طحنتني
رحى الأيام ، فما ذكرتُ دفترتي إلا بعدَ خمسِ أخرى حين قال لي
ابن اختٍ لي بأنه يحتفظ بدفترٍ لي كنتُ أكتبُ عليه مدّة دراستي في
كلية الطبِّ بجامعة دمشق ، وأعطانيه . . .

فَقَبَعَ في ركنٍ من مكنتي . . .

ونسي سنينَ أخرى ! . .

ومنذ أسابيعَ قرأتهُ ، فإذا هو أمامي كما كنتُ منذ ربع قرنٍ من

الزمان ، صدى أيام هي ما كنت بكلّ حلاوتها ، ومرارتها ...

وكانت لي أيام دھولٍ ! ...

وكما تطفو الذكرى على السطح عاد لي شجني ...

وكما يُسَرِّحُ المساءُ نفسه على البحرِ انتشرتْ أشواقِي ...

وكالبحر الساجي ، صارت رُوحِي ، عمقاً ، وامتداداً ...

وبكل الوعي ، واللاوعي ، المخزونين فيّ ، انكفأتُ على

أعماقي ، واستحضرت أبا الفرج

ليروي لكم هذا الكتاب .

فكانَ نِعَمَ ما فَعَلَ ...

شدَّبَ تنوّاتٍ ما كتبتُ ، فاستدارَ الزمانُ حتّى عاد كما كان منذ ربيعِ

قرنٍ ، ولكنه أكثرُ رونقاً وجمالاً ...

وأضافَ من عندهِ ، فسحرنِي ، فكانَ ما بنفسِي يجري على

لسانِهِ ...

حتى إذا أَجْمَلَ ... وأُكْمَلَ ... وأُتِمَّ ...
رحلَ .

فلا تَسَلْ من هو أبو الفرج ؟ ...
وهل حقيقةً كان ؟ ...
فأنا نفسي لا أدري ...
ولكن دَعُهُ يأخذكَ إلى أعماقِهِ ، أو أعماقِكَ ، سيَّان ؛ ...
كما أخذني ...

فبعدها لن تسأل ! ..
كما توقفتُ أنا عن السؤال ! ...

وصرتُ أصيخُ بكلِّ الشوقِ ، والنبضِ ، والتلهفِ ،
إذا حَدثَ أبو الفرج ...

حديثُ الطَّبِّ ..

حديثُ الطَّبِّ ..

حدّث أبو صيَّاح الحكواتي بمقهى النوفرة ، جارة
الجامع الأمويّ بدمشق قال :

قرأتُ لحَمَّاد الراوية قال :

التقيْتُ أبا الفرج الطبيب ليلةً في بادية السماوة ،
فسألته في شأنِهِ ، فأطرق ساعةً ثم قال :

أصابني همٌّ شديدٌ مُنْقَلَبًا من صِفَيْنِ ، فَذَهَبَتْ عَنِّي

أزمان وفؤادي فارغٌ ...

ففي الزمن الأول كان الهمُّ المستورٌ ...

وفي الزمن الثاني كان الهمُّ المنظورٌ ...

وفي الزمن الرابع تعاظمَ الهمُّ ...

وفي الزمن السادس فَرَعْتُ إلى عَزَمِي ، وقلتُ أدرسُ

الطبَّ ، فَيَمَّمْتُ نحو جُنْدِيسَابُور .

وبعدَ سنينَ عِجَافٍ قالوا : انتهيتَ إلى ما عَلَّمْنَاكَ ،

فكن مداوياً في قسمِ طُراقِ الليل ، فقلتُ : همي غير

ذلك ، فلبثْتُ في السجنِ شهوراً طوالاً ، ثم قلتُ : أَلَيْنُ

لَهُمْ وَقَبِلْتُ ، وفي النفسِ خفقُ الرفضِ ، فقالوا : هنا

تنامُ ، فراشٌ من أَدَمٍ حَشُوهُ خِرْقٌ . يوقظُكَ حارسُ الليل

كلما طَرَقْنَا مريضاً أو جريحاً ...

وفي ليلةٍ جَهِدْتَنِي ، فَأَخَذْتُ يَقْظَتِي إِغْفَاءً

عميقة ... سمعته يناديني : يا أبا الفرج ! ... ، كان

كالباب العتيق يقف على خطى من الفراش ...
ولحيته ! ... كم تمنيت لو أني أجد لها وصفاً ...

قبل صفين ، حين كانت حكايا جدي تطربنا ، قال
لي يوماً : يا أبا الفرج ، بسواحل بلاد الشام عصابة تتجر
بالخمور ، وخوفاً من الوالي أتخذت لخمورها من مقبرة
على الشاطئ مخبأ ، وخرقوا شبحاً أذاعوا به في القرى
المجاورة ، دائم التجوال في ليل المقبرة ...

شدتني الفكرة ...

ما الفرق بين هذه البيمارستان والمقبرة ؟! .. وبين
المهريين والعاملين هنا ؟! ..

أمس طلبت من القائم على الصيدلية عُشبة أَلَم
الرأس ، فقد أَلَم عليّ منذ صلاة العصر ... أحضر لي كيساً
خُطَّ عليه بخطٍ رديءٍ : « ثلاث عُشباتٍ لأَلَم الرأس » ،
مهترٌ بخاتمي على رقعةٍ قدَّمتها لي للتصديق على صرفها ،

حين فتحتُ الكيس وجدت عُشبتين فقط . . .

بعد ساعة مَهَرْتُ بِخَاتَمِي رَقْعَةً أُخْرَى لَصِرْفِ سِتِّ
عُشْبَاتٍ لَأَلَمِ الظَّهْرِ أَحْتَاجُهَا مَرِيضٌ ، عادَ لِيَسْأَلَنِي عَنْ
أَوْقَاتِ غَلِيهَا فَأَدْهَشَنِي وَجُودُ خَمْسٍ مِنْهَا فَقَطْ ، أَلْمَحْتُ
لصاحب الصيدلية بذلك ، فقال ودَفَعَ عَشْبَةً فِي يَدِ
المريض : أَخْطَأْتُ الْعَدَّ . . .

أبدًا ودائمًا يَخْطِئُ الْعَدَّ ! . .

وَدَدْتُ لَوْ أَسْلَحُ عَلَيْهِ . . . وَلَكِنِّي مَا فَعَلْتُ . . .

يا أبا الفرج . . . أيها الطبيب .. هتف بي . . .

فتحتُ عَيْنِي الْيَمْنَى هَوْنًا كَمَا يَبْزُغُ الْفَجْرُ . . .
وَأَغْمَضْتُ الْيَسْرَى وَنَظَرْتُ إِلَى الْهَاتِفِ ذِي اللَّحْيَةِ . . .

تَمَنَيْتُ لَوْ أَتَذَكَّرُ نَهَايَةَ الْقِصَّةِ الَّتِي كَانَ يَرْوِيهَا جَدِّي .

أيها الطبيب !! . هتف بضجرٍ ..

قلتُ : مَا بَكَ ؟ ! . .

قال : أحدُ بغرفة طارقي الليل ..

يا أولاد الخنازير ..

ما الفرقُ بينكم وبين الوجع الذي ألجأ هذا الطارق
إلينا؟! ..

ربما كان الوجع خيراً منكم ، تداويه فيرحل ... أما
أنتم يا أولاد الـ ...

تمنيتُ لو أن الدهليز الذي يقودني إلى حيث الطارق
لا ينتهي ...

وتساءلَ داخلي : لِمَ يوقظونك يا أبا الفرج؟! . ترتدي
قفطانك الأبيض المتسخ ذا الأكمام التي لا هي غطتُ
الساعد ولا انحسرتُ حتى العضد .. كمثّل ما يمارسون
الطبّ في جنديسابور ثم تنتعل خُفّاً لا تعرف كم يُبقي من
قدمك على الأرض ولكنك أكيدٌ أنه أكثر مما يَسْتُر ...

لعنةُ الله على جنديسابور ! ..

أَشْتَرُوا خُفًّا لأطباء الليل ! .. والرُّدُّ لا فائِضَ عند
المُخْتَسِبِ ! ..

تعلمتُ أن لا أَعترض وإلا مكثتُ في السجن
سنين ...

غَصَّ حلقي ، ولكنَّ شعوراً بالارتياحِ أعقبَ ، فقد
خطر ببالي أن مدرسة طب جنديسابور تشبه هذا
الخُفَّ ... كلاهما مهترئ ...

ثم عاد داخلي يُلحُّ عليّ :

ستصل غرفة الموجهين ، تجد مسكيناً يتلوى ،
حوله بعضٌ من أقاربه أو معارفه ، تمشي ، تجلس خلف
منضدةٍ تشبه طاولةً لمعلمٍ لك في الكُتَّابِ في الدهر
الأول ... أتذكُرُ ؟ ! .. بقي لها ثلاثُ أرجلٍ ، بعد أن فقدت

الرابعة ، وحين غالب النعاسُ معلّم الكتابِ انكفأَ عليها
فمالتُ ، فارتطم بالأرض .. فانجس الدّم من رأسه ..؟!
ستصل غرفة المَجوعين ...

وكما في كل مرّة تسأل : أين رقعة المَجوع ؟ ...
يناولك الحارسُ الليلي الرقعة مخطوطاً عليها اسمُ المَجوع ،
وأنه استلم ست عُشباتٍ والحقُّ أنها خمسٌ ، ...
آه يا أولاد الفاحشة ...

يوقظونني ليسرقوا عُشبة !! ..
عليكم الغضب ...

ولجتُ البابَ لأجد شاباً أمرَدَ ناولني رقعةً كُتِبَ
عليها :

« لتلبية حاجته » وهي ممهورةٌ بخاتمِ إسمِ صاحبه
« ريحانة » ... أمك لا تختلفُ عن ريحانة هذه !! ..

قلتُ ونظرتُ إليه : لا أعرفها ...

قال : هي ليست لك ، ...

قلت : لمن ؟! ...

قال : لرئيسكم ...

قلتُ : أمر أن لا يُوقَظَ وإن ماتَ أحدٌ ...

قال : لقد أَيْقَظْتُه الساعة !! ...

وقبل أن أرد ، دخل الباب الرئيسُ وقال :

يا أبا الفرج وَقَّعَ على رقعةٍ تذهب إلى قائد الحملة
المتوجهة إلى سمرقند بأنَّ هذا الجندي لا يمكنه الوقوف
من عِرْق الأنسر الذي ألمَّ عليه ، ويحتاج إلى ستة أشهر
إبلالاً ... ولا تُنَسَّ أن تمهرها بخاتمك ...

قلت : ولكن ..

قطع عليّ : لا تعترض ، ...

تذكرت لبثي في السجن ، فغص بي حلقي . . .

.....

حين قدمتُ إلى جنديسابور قالوا لي :

«ستمضي أعواماً جميلة تذكرها»

أشحتُ بوجهي ناحية شجرة السفرجل الموجودة بفناء
البيمارستان . . . ماذا أَتَذَكَّرُ منك يا سفرجل
جنديسابور . . . « كل عضة بغصة » . . .

تمنيتُ لو أستطيع تعليق شيء ما على مدخل
البيمارستان وأكتبُ عليه :

« مدرسة السفرجل لتعليم الطب » . . .

.....

ما كتبتُ شيئاً . . .

ولا مهت رقعة ،
ولا كلمتُ الأمرَ ...
بل اعتليتُ فرساً لي تحسنُ السيرُ على الليل ...
وكزتها ... فكنتُ هنا ...

قال حمّاد الراوية : تملكني العَجَبُ ليلتي أفكر فيما
قاله أبو الفرج الطيب ، والتمسته عند صلاة الفجر لأسأله
عن أشياء مما نسيْتُ فما وجدتُ له أثراً ...

وكثيراً ما يكون كذلك ..

حدیثِ حکمت ..

حديثُ الحكمة ..

حدثنا يحيى بن سليمان قال : لقيتُ أبا الفرج
الطبيب في سفر لي إلى خراسان فقلتُ : هل لي ببعض
الحكمة ؟! ..

قال : هل لديك قرطاسٌ وقلمٌ ؟! ..

قلت : هاكها ...

قال : ألقني بعد صلاة العشاء الآخرة، وأبقِ على
وضوئك ...

ففعلتُ

فدفع إليّ القرطاس فإذا فيه :

أهذا الكالحُ الوجه غَدُهُ المنشود ؟! . . .

أتلك اليد المعروقةُ يد القدر ؟! . .

أم أرزاقه تلك الغيوم التي يموتُ فيها الماء ؟!! . .

سبعة قرون والثواني تنقر من عيونه . .

والليلُ غجربةٌ تضحكُ منه . . .

ودرب هجرته ثلوج . . .

وحين وصل ، وجد القلعة ذات عشر نوافذ .

ولا باب . . .

أراد أن يصرخ . .

قال له الحراس : إن الكلام ممنوع . . . وعشرون
رب على مائدة خضراء يصلبونك . . .

قال : أبو بكر يحميني . . .

قالوا : أبو بكر قتلته الردة . . .

قال : إذا خالد . . .

قالوا : باعوه بسراج يضيء من الخامسة حتى
الثامنة .

قال : عقبة .

قالوا : أكلته عُشْبَةُ عِرْقِ الْأَنْسَرِ

قال : وأنا

قالوا : ومن أنتَ ولا كرش لك ولا راحلة تركبها

قال : جلدي صار حذاء . .

قالوا : وبعد شهرٍ سترقص على حَدِّ السكين . . .



أفكاره ذات مذاقٍ لاذع . . .
واسمه فَقَدَهُ في طريق القرون السبعة الثلجي . . .
وسيناءٌ من الضياع . . .
وشوقٌ منهكٌ لأملٍ لم يورق . . .
وعلى أحداقه تسبحُ صحراءُ ربعٍ خالٍ . . .
وسقياه ماءً في رملٍ الزمنُ . . .
وعلى الأفكارِ شرطيٌّ . . .
وقدّرُ عتيقٌ . . .
هذه دنياه . . . فلم يَسْكُتْ ؟! . . .
قال سأصرخُ : هذا ظلمٌ!! . . .
قالوا : سيصلبونك ، والموتُ يشربك صَبُوحاً . . .



يا كالح الوجه . . .

هل كنت سوى حبلٍ غسيلٍ علّق عليك أساطيره؟! . .
وهل كان سوى مظلومٍ أبداً مصلوب
كان حادياً . .

والحداءُ موال . . .

والموال مفتونٌ بليلى . . .

يركضُ في أعقابِ ليلى . . .

ولا ليلى . . .

*

*

*

آهٍ يا غدُ . . .

لا لون ولا شكل لأزهار الذبول . . .

يا كالح الوجه ، كل ما لديّ كلمتان :

يا حسرةً فكرٍ يحيا . . .

ويشقى . . .

ثم يموت . . . في الغُربة . . .

غربة الضياع . . .

قال يحيى بن سليمان : رحم الله أبا الفرج كانت

الغربة تقتاتُ عيونه . . .

حديثُ المُنَاجَاةِ ..

حديثُ المناجاة ..

حدثنا أبو الفرج الأصفهاني - ولم يذكره في كتاب
الأغاني - قال :

سمعت أعرابياً يقول : سمعت أبا الفرج الطبيب ليلةً
يرفعُ صوته في هداة الليل :

يا سيدي يا أبا ذر . . .
يا أسطورةً معلقةً على شفاها . . .

يا رمزاً لآلام لا تنتهي . . .
لمسيرة تمشي وحدها . . .
وتموت وحدها . . .

* * *

حياتنا يا سيدي ربدة
ورداؤنا لن يكفينا كفن . . .
وآلامنا ألسنُ خرساء لم ترزق براعة منشد . . .

* * *

يا سيدي يا أبا ذر
أنشدك مناجاتي هذه راجياً منك أن تخبر رسولنا

الكریم أن هناك من یمشي وحده ويموتُ وحده . . .
فهل یا ترى يُبعثُ وحده ؟! . . .
وإذا سألك من يكون . . .
فقل له یا سيدي یا أبا ذر :
« إنه دارس الطب في جنديسابور »

حديث الموجهة ..

حديث المومنة ..

حدثنا أبو الأرياف ليلةً حين غاب أبو صياح
الحكواتي عن مقهى النوفرة لمرض ألمَّ به قال :

حدثنا حمّاد الراوية قال : سألت أبا الفرج الطبيب لِمَ
وَجَدُوا عليه في جنديسابور فقال :

يا حمّاد « لو أخذ الله الحقيقة المطلقة في يمينه ،

والرغبة المتوثبة إلى البحث في يسراه ومعها الخطأ لزامٌ لي
وقال : إِخْتَرْ . . إذاً لجثوثٌ ذليلاً عند يسراه وقلتُ :
أعطني الرغبة إلى البحث ، إنما الحقيقة المطلقة لك
وحدك » . . .

هذا ما قاله غندلنغ . . .

قال حمّاد فقلتُ : من غندلنغ هذا ؟! . .

قال : رجلٌ سيّأتِي !! . . يحترف علم الكلام . . .

ثم قال : يا حمّاد فإن لم تكن تملك الحقيقة فهل
البحثُ عنها بمانعٍ نفسه على أحد ؟! . .

ثم سكتَ وسكُتُ . . .

حتى ذهبتَ لنا ساعة أنشأ يقول :

يا حمّاد إن الحضارة بدأت حين أمسك أولُ إنسانٍ

عن أكل طائرٍ اصطاده ، ثمَّ أشعلَ ناراً فشواه ... ، ثمَّ
أكله ...

بدأت الحضارة عندما تَعَلَّمَ الإنسانُ الفَضْلَ بين
حاجاته الحياتية وبين طريقةٍ إشباعها لتكون اللذةُ
أعظم ... أليس الترقُّبُ على الظمأ أشهى من لحظاتٍ بعد
الارتواء؟! ..

يا حمّاد ، ممارسةُ الشيء علمٌ ، وكل علمٍ تحدّه
حدودٌ ، وتذوّق الممارسة فن ، والفنُّ لا تحدّه
حدود ...

قال حماد فقلت : ماذا تريدُ يا أبا الفرج؟! ..
قال : ركوعي أمام يسرى الله لحظاتٍ فإن وُفِّقْتُ
فذاك مدعاةٌ لفخري ...

وإن لم أُوَفَّقْ فعزائي أنني حاولت . .

قال حماد قلتُ : لذلك وجدوا عليك

قال : اللهم نعم . .

حديثُ البُكا، ..

حديثُ الجاء ..

حدث إبراهيم البصري قال :

سمعت حماد الراوية يقول :

وجدتُ أبا الفرج الطيب ليلةً يبكي ..

فقلتُ : ما يبكيك فكأن عَيْنِكَ شفقُ المغيب ؟!! ..

فقال :

دعني يا حمّاد لأسى الجرح العميق ،

أضعتُ يا حماد الطريق ، وضاع من طريقي الرفيق .
أطفئتُ شموع قلبي ، وأمّحتُ معالم دربي ...
وأمرضَ مرقي جرحُ مشعلُ ناره ، تلسع مهجتي ،
فتبكي النفسُ لوعةً ...
ويلتوي الفؤاد حرقه ...
وتحملني أكفُ الأرقِ إلى متاهات الضياع ...
أبكي والناس ضحك ...
أمشي والناس قُعد ...
أضعتُ يا حماد نفسي ... فلم أعد أدري كيف
أعيش ، ولا كيف الواجبُ أن أعيش .
أحملُ جثةَ قلبي طيَّ نفسي ، وأسيرُ بالنعش إلى غير
ما هدف ...
وتلوكني دوامةُ الجنون ...
وتلفظني ...

فشيءٌ بأعراقي يستعر ..
 يحيلني إلى مراجلٍ تغلي ، توضعُ فوقها
 أعصابي ...
 وأمزقُ نبضي بأحرفٍ تبكي ...
 وقصائدٌ تكلّي ...
 ورَبَابٍ حيرى أعزفُ عليها لحنَ التَّوَجُّعِ ،
 ومقطوعاتٍ التزيفِ الأخرس ...
 نحن يا حمّاد هياكلُ بلا نفوس ..
 تعزف لحن الخراب ...
 نحن أشباحُ بلا أرواح ...
 وجودها يعد مأساة ..

قال حماد : رحم الله أبا الفرج كنا نرقُّ له حتى
 نبكي .

حديثُ السُّرورِ ..

حديثُ السرور..

حدّث حماد الراوية قال :

تعلق أبو الفرج صبيّة في بادية السماوة ، تدعى
« واحة » وقف أصيلاً يحدّثها فلما ألحّ عليها الانصرافُ
قالت : حدّثني عن أحاسيسك ...

فقال :

آه يا حبيبتى ..

لو تعلمين ! ..

كيف خِلْتُ الدنيا كُورَتْ ثُمَّ وُضِعَتْ فِي كَفِي . .
خِلْتُ أَنَّ الزَّمانَ تَوَقَّفَ . .

عَشْتُ دُنْيا سَعِيدَةً . . .

عاد ربيعِي بعد نَفادٍ ، . . أَنْتِ الرِّبيعُ العائِدُ . . .
أَهْ لو تَعْلَمِينَ . . .

حِينَ لا حَتَّ مِنْكَ أَزْاهِيرُ الصِّبَا وَالْفَتونِ . .
كَيْفَ هَامَ قَلْبِي . . .

وَرَكضْتُ رُوحِي عَلَى قاعِ فَرَشَتِها أَقاحِ مُتِيماتٍ ،
وَضَلَلْتُها زِيْفوناتٍ غافِياتٍ

لَمْ أَعُدْ أَحسَّ قَلْبِي . . .
أَضاعَهُ السُّرورُ . . .

فلم أعد أدري هل السرور نفسي أم نفسي السرور . .
آه لو تعلمين ، آه . .

قال حماد الراوية : كذلك عهدي بأبي الفرج إذا
أحب .

حدیثُ اَضْوِ حَیْنِ بُصْبَی ..

حديثُ الفَرَجِ حينُ يُصَلِّي ..

قال نزار العُذري : سألت أبا الفرج الطيب وقلتُ :
يا أبا الفرج نحن بنو عذرة نُتَيِّمُ بالنساء ونقولُ فيهن حُلُوَ
الكلام فكيف تحبُّ واحدة ؟! ..

قال :

حين أراها . . . تسري في كياني رعدةً جميلةً تسربلُ

روحي بالموسيقى فتحيل لحظتي إلى مزرعة يصلي على
ترابها الضوء والعبير .

قال نزار العُذري : يا له من إيجازٍ معجز . .

حديثُ الموتِ الأولِ ..

حديثُ الموتِ للدُّرَّةِ ..

حدث أبو عمرو اللخمي قال :

التمسنا «واحة» ذات صباح فوجدناها باردة الأطراف ،
ثم لم نلبث أن وارينها التراب ، فَجُنَّ أبو الفرج الطيب
حين عَلِمَ أَنَّ ابْنَ عَمِّ لَهَا خَنَقَهَا غَيْرَةً ، فهام أحقاباً ، ثم جاء
أصيلاً ووقف على قبرها . . . صامتاً تغطي وجهه شفافية
حزينٍ كالخريف . . . فرققتُ له وقلتُ :

كيف أنت يا أبا الفرج ؟! ..

فأنشأ يقول :

الصقيع شرَّشَ في عظامي . . .

ورائحةُ ترابِ المقابر ملأت خياشيمي . . .

وفؤادي على صليب الذكرى يجتر مرارة عمره ،

وعلى شفاهه تموتُ البیادر . . . فما من ربيعٍ بعدها

يزهر ، ولا ليلك يُضَوِّعُ . . .

مات الربيع الشاب ! . . .

والنبض ضاعَ في سراديب الألم ، ما عاد يواكبُ رنةَ

صوتها ، تشرّد في سيناء من الضياع أزلية المبتدا ،

سرمدیه المنتهى ! . . .

فقلتُ : هوّن على نفسك ، ارفق بها . . .

قال :

كيف والحلمُ الجميلُ أبْنُوهُ ولَمَّا !! .

طرزناه بأغنيات رائعاتٍ فوأدوه طفلاً ! ! .

غَذَيْنَاهُ فاغتالوه ! ! .

سكبنا له الحبّ فكسروا الأقداح قبل أن يثمل ! ! .

صنعنا له النجومَ قلادةً فرطوا عقدها ليلةً دفينه ! ! .

خلقنا له من النبض وتراً حينَ أرادَ أن يعزِفَ عليه لحنَ
عمره قَطَّعُوهُ ! ! .

حينَ أمسكَ الشمسَ بيمينه هَدَّوا ما تحته فهوئى ! ! .

يا حسرة القصيد الذي يعيشُ في غربة الموت ! ! ! .

فقلتُ : إنسَ فإن لم تستطع فتناسَ ! ! .

قال :

يا أبا عمرو ، من أين آتي بدربٍ لخطئِ النسيان ؟ ! ! ! .

وفي الكأسِ لا أرى إلا وجهها ؟ ! ! ! .

وفي خمرة الوجد لا أحس إلا شفيتها ؟ ! ! .

وفي الرباب لا أسمع إلا رنةً صوتها؟! ..
فهي مدينةٌ من ضوءٍ وعبير ، تورقُ كل حين ،
وتضوُّعُ كلَّ آن ...
كيف كبا بنا الزمن ، وهزمتنا التقاليد؟! ..
لست أدري ...
يا أبا عمرو ، أحرفي كَبْتُ ،
وقصيدي شَحَّ نبعُهُ بعد أن رَحَلْتُ ...
والليلُ الطويلُ حلَّ في الربوع ...
وذكرها سراجي ،
قنديلُ دربٍ ، وشمعةٌ وحدةٌ ...
تنير لي الطريق ...
لا لكي أسير ، ولكن كي أرى الشوك يدمي قدمي ،
وآثارَ الريح تجلد ظهري! ...
فدعني أبكي حبًّا قتلوه حين شبَّ عن الطوق ما دام

في المقلة دمعُ وفي القلبِ نَحيب ...
يا أبا عمرو ...

قال ...
وأجهش بالبكاء! ...

حديثُ الموت الثاني..

حديث الموت الثاني ..

حدث أبو المعالي الكندي قال :
سمعتُ حماد الراوية يقول : حين ماتت « واحدة »
وجدنا على قبرها قرطاساً . . .
وكان فيه :

يا طاهرة . . .
ترى أأكتبُ لك حروفاً بلهاء كما يكتبُ غيري ؟! . .

ولغات العالم ، كل لغات العالم تقفُ حيرى تجاه
ما أجيش به ! ...

الكلماتُ فَقَدَتْ بريقها ...

فالحبُّ حين يشقى تصبُحُ الكلماتُ من ألم ،
والنبض من توجع ، والحنين نزيف ...

صحراء رُبُع خالٍ حياتي بعدك ...

لا رفة هذبٍ ، ولا موالٍ عشقٍ ، حتى ولا دمع
شجن ...

فالدموعُ محبوسةٌ خلف الجفون ، لا تسُحُّ فتريح ،
ولا تجفُّ وتستريح ...

الليلُ والنهار لم يعد لهما من معنى سوى تواترٍ رهيبٍ
مملٍّ وقاتلٍ ...

والزهر ، والطير أشياء لم تعد توحى لي بشيء ...
وعيناك ...

عيناك فقط احتفظتا بمعناهما . . .
شوكة في القلب تدميه حين أذكرهما . . .



يا قصة حب محفورة في خلد الزمن . . .
يا ترنيمة عاشق أبداً مصلوب . . . يا قديسة . . .
الشوك نبت على جذراني . . .
وأصبحت سمائي بلا نجوم . . .
وزماني بلا زمن . . .
بعدك يقتلني الظماً . . .

قال أبو المعالي الكندي :
رحم الله واحدة فرحيلها كان بداية تصدع أبي الفرج .

حدیثُ واقعہ ..

حديثُ والحمدة ..

حدث حكم الزمان بن إسحق عن بدء حب أبي الفرج
لواحة قال :

حدث حماد الراوية بذلك قال :

جلستُ وأبا الفرج بعد صلاة الجمعة في المسجد
وتبسط لنا الحديث فقلت : يا أبا الفرج كيف كان

بدءً « واحدة » معك ؟! ...

قال : إذا كان يوم الاثنين فتطهّر وتطيّب وتعال إليّ
حين تدخل العتمة أخبرك ...

فلما كان قال :

شابّ انتصف عقده الثالث ، لَوَحَتْهُ شمسٌ حزينة ،
وعشش إحساسٌ قاتلٌ بالغبّة في كيانه ، ساهمٌ لا يدري
كيف تَغَرَّزُ قدماه في الطريق الموصل إلى الجبل الذي تغرّب
خلفه الشمس ، وأصيلٌ أيلول يثير في نفسه شعوراً بحزنٍ
عميقٍ يُغَلِّفُ روحه ليخرجه عن عالم الطريق الذي كان
يسلك ...

وسرّت قشعريرةٌ في ذاته ..

وجهٌ كَظَلَّ نبيّ في لحظة صفاء مع الله طالعه ،

فُسِّمَتْ قدماه بالطريق . . .

وعيناه « انزعت » في عيونِ كالمنى . .

ثم مضى . . .

كحلم جميل . . . مضى . . .

تشرب أحاسيسه ورداتُ بيضٍ ، ويحتسي نبضه
قصيدُ نبيٍّ تَجَلَّى له القدسُ الساحر . . .



كان الغريبُ الساهمُ أنا . . .

قالَ أبو الفرج ، وأردفَ :

وكانت وجهاً كظلِ نبي في لحظة صفاء مع الله شربتُ
نبضي . . .

ولأيامٍ لستُ أدري لها عدداً ظلت ذكرى نيسانين

رائعين « تنغرزُ » في أعراقي كسكينٍ جائعة ، تقعات
الفكر مني والتفكير ...

وجاء تشرينُ ، شهر الريح والمطر ، ليزيدَ في
غربتي ، ويذكي في خاطري وهج طيفٍ يلازمني
كظلي ...

حلّ تشرين ليربط قدري بقدرٍ لا يدريني ...
وليخلق لي عالماً يعيش في كياني ولا يعرفني ...
ويسكن أعصابي ولا يحسُّ بي ...

فقد رأيتها مرّةً ثانية ...

وكما يَنْشُدُ مؤمنٌ إلى الملكوت الأعلى مشيتُ
وراءَهَا ، وكَبُرَ بالنفسِ دفينٌ يطلبُ مني أن
لا أكملَ المشوارَ ، ولكنها كانت كساحرٍ لا يُقاوَمُ
سحرُهُ ! ...

ووجدتني أعرف بيتها ، ومن تكون ...

« واحدة »

اسمٌ ما كانت قصائدي لتحلم بروعته ...

ولا مصابحي أن تُشعلَ من أجله ...

ولا ليلي أن يمتد بي لذكراه ...



سألتُ صاحباً لي وكان لها جاراً ، حدثني طويلاً ،
قالَ وأصغيتُ حتى شربتني السعادة ، فلم أعد أحسُّ
قلبي ... كل ما وعيتُ أنني أضيعُ في دنيا من عبير يضوع
في أرجاء روعي ليطلَّ الربيعُ الشاب في أعماقي يغطي
طرقاتِ نفسي بالعنّاب والعندم ...

ودعتُ صاحبي وَحَلْمٌ بين أَهدابي يزهر . . .
وحجْمُ نبضي أكبرُ من مساحة قلبي . . .
وقصيدي يشرب حلاوةً لم يعهدها من قبلُ . . .
يشربها حتىّ يشمل . . .

ومرت لي أيام . . . كنتُ وصاحبي نسيرُ في درب
ريح الصَّبَا ، قلتُ ووقفتُ فجأةً : هناك إحساسٌ غريبٌ في
داخلي ينبىءُ بأنني سأرى « واحدة » اللحظة . . . وابتسم
صاحبي ابتسامةً خفيفةً ملأت وجهه ممزوجةً بدهشةٍ بِكْرٍ
حين أقبلتُ كمهرةٍ مع بُنيّةٍ تصاحبها . . .
ولم أعد أميزُ معاني الخفق في داخلي . . .
إحساسي الطاغي الذي صدق ؟! .
أم فرحتي بلقيها ؟! .

أم تلهفي عليها؟! .

أيُّها كان يحركُ أهدابي نحوها كأيدٍ ملتاعة؟! . . .

لستُ أدري . . .

فكأن سحراً كفَّ بصري إلا عنها . . . إن رأيتُ
جميلةً ذكرتها وكلُّ الجميلات حين تذكرُ « واحدةٌ »
يتلاشين . . .

وإن أبصرتُ وردةً هاج بي شوقٌ ساحر . . . وكل
الورود إن ذكرتُ « واحدةٌ » يعلوها الخجلُ . . .

وإن سمعتُ قصيداً بكت روعي ، وكلُّ القصائد
تغني الجمالَ الذي هو منها بعض ، وبعضٌ منها فيه
كلُّ . . .

وإن ذكر الحنانُ هاجني الحنينُ ، فكلُّ الدروبِ إليها
توصلُ ، وباديةُ السماوة حين ولادةِ الفجرِ ما هي إلا رنوةٌ
على أهدابها . . .

كنتُ أراها في عيون الآباء ، ولهفة الأمهاتِ . . .
في فرح الأخوة وابتسام الصحاب . . .



لم أسعَ في لقاءها مرةً رابعةً وقلتُ سيجود الزمان بها
كما جادَ بأخواتها من قبلُ ، وانتظرتُ طويلاً حتى ملّني
الصبرُ وأنا أَصْبِرُهُ ، وعشتُ على أملٍ بهذه اللقيا حتى خُيِّلَ
إليّ أن الأمل لن يورق . . .

الليلُ ، وسراجي ، وذكرها ، وأنا . . كُتِبَ علينا أن
لا نفترقَ . . .

وقلبي عصفورٌ طارَ ألفَ قرنٍ تحت الثلوج وحين
وصل وجد شباكها مغلقاً فَحَوَّمْ حوله يلسع ريشه المطر ،

وتَجَلَدُ جَنَاحَيْهِ رِيحُ المَواجيد ...
وكلُّ الذي في دنيا التباريح يمدُّ يداً تُسرقُ الضياءَ من
عينيه ... لِتُضَيَعَ في ليلِ المَتهاتِ أَقمارَه ، فيرسلَ لحناً
بكلِ الشجورِ يَموتُ في العَتمَة ...
فلا الليلُ يدري حداةَ الحزين ، ولا « واحَةٌ » تدري
وجدَ لِياليه ...

فأطرقَ ساعَةً ، فقلتُ : وبعد ؟! ..

قالَ : وبعد ؟! ..

قلتُ : نعم ! ..

قالَ :

أضناني ما بي ، فحملتُ ذكراها وصعدتُ قَمَّةَ ذلك
الجبل الذي يتناول نحو السماء ، وألقيت بهاته الذكرى
فبدا الجبلُ قزماً تحت قدميها ...

كلُّ وجوه الكواعب صفعْتُ بها لمَحَ ذكراها
فتحطمت الوجوه . . .

من أين آتِي لقدميِّ بدربٍ ، وكل الدروب إليها توصل ؟ .
لقد كنتُ أراها في ابتسامات الصبايا منقوشة . . .
وعيناها الخضراوان في كلِّ مكانٍ كتعويذة مطبوعة . . .
في عيون الأطفال أراها تسكنُ . . .

ومن بين شفاه العجائز حين يصلينَ تخرُجُ . . .
من أوراق الشجر . . .
من قطرات المطر . . .
من عمامتي . . .

من خيطان ردائي . . . كانت تنبُعُ ..
فأينَ أذهبُ ، وكلما هربتُ منها تراني إليها
أهربُ . . .

قال حمّاد : قالَ ذلك وتركني ومشى ، فمشيتُ
وراءه لا نتكلم . . .

وقف وقال والتفتَ إليّ :

يا حمّاد لعلك تقول ثم ماذا ؟! . .

قلتُ : هو ذاك . . .

قال : نعم . . . وتابع : وقفتُ لها على الطريق
المضاءة بالبدر ليلة نصف الشهر وحين ضَوَّع الطريقُ
بعطرها هتفتُ : « واحة » ! . . .

قالت : ما شأنك ؟! . .

قلتُ :

قاربُ في لُجَّةٍ ، تكالبت عليه الأنواءُ ، ولعبتُ
بمقاديره العواصفُ ، وعليه فارسٌ لا يقوى على الانتصار
ولا يطيقُ الانكسارَ ، بربك قولي ماذا يفعلُ ؟! . .

قالت : لَعَلَّه أَنْتَ ! ..

قلتُ :

سكينٌ مغروزةٌ بفوهةِ الشريانِ ، وذكرى شَرَّشَتْ
بالأعصابِ ، ونبضٌ يسرقُ صاحِبَهُ ، وخلجةٌ ما مستها يدٌ
بحنانٍ ، أستحلفكِ ما الحيلةُ فيها ؟ ! ..

قالت وابتسمت : قُلْ ! ..

قلتُ :

أهدابٌ ملتاعةٌ ، وروحٌ متيمٌ ، وخفقٌ يتيمٌ ...
ألا تحتاجُ لموسمِ عطاء ؟ ! ..

قالت وفاحَ عطرها : وماذا ؟ ! ..

قلتُ :

شِعْرٌ يستعصي إلا فيك ، وشبابٌ يأبى إلاك ، وربابٌ
مهشمٌ ، ومزمارٌ بُحَّ ، أليس لها من لمسة حنانٍ
عندك ؟! ..

قالت : تحكي مثل الأساطير ، وحزنك
لا يطاول ...

قلتُ :

مدنُ الأحزان مدني ، ولكنك علمتني فيها أشياءَ
جديدة ، علمتني أن أمشط حباتِ رملٍ بادية السماء
بحثاً عن أثارِك ،

علمتني أن أفتش عنك بين النجمات في الليالي
الصفاء ، بتُّ أحكي لأطفالِ الربيعِ عنك ، وينصتُ

الأطفالُ بكل خشوع ،

لا تعجبي .. كلهم صاروا يعرفون ... فهم يرونك
تسبحين في عينيَّ ..

نعم ... كلهم صاروا يعرفونك ، ولكنني وحدي
الذي أدمنُ هواك ..

قالتُ : قُلْ ، فإن لكلامك طلاوة ، وإن به
لحلاوة ! ...

قلتُ :

« واحدة » ...

يا نداءً رنّ في خاطري لم تحلم الأحلامُ بمثله ! ...

يا مدينةً من عبير ...

يا صبيةً تولدُ في الحسرة والمسرة ...

يا أشهى من عسلٍ ...
يا أنتِ ... يا « واحدة » ...

يا من ينبتُ السحرُ من رنوةِ أهدابها ...
يا لؤلؤةٌ ما حواها صدف ...
يا ليلكاً يتكدسُ في درب عمري ...
يا أنتِ ... يا « واحدة » ...

يا جنةً لا يبلغُ حدودها تصوّرُ ...
يا ربيعاً مخضوضراً حوى حدودَ الأفق ...
يا من تجعلني أحسُّ بحلاوة عمري ، ومرارته ،
يا أنتِ ... يا « واحدة » ..

قالت : لك الله ، ما أجملَ ما تقول ، وهمَّ بها الانصرافُ .

فقلتُ :

يا واحةَ عمري تمهلي . . . فبعيداً عنك حياتي باديةً
من الضياع . . .

تمهلي .. لأعزف لك عمري لحناً . . .

أو أفرش لك هدبي دَرْباً . . .

ليتُك يا « واحة » لي . . . كي أصنع منك أميرةً
تتمسحُ بأذيالِ ثوبها النجومُ . . .

قالت : فإن لم أكنُ ! ..

قلتُ :

فهي إذن حكايةُ أليمةٍ لا يبليها الزمنُ . .

قال حمّاد : دون أن يلتفتَ إليّ مشى أبو الفرج
مسرعاً حيث غيَّبه الظلامُ . . .

حديثُ الإِخْلَادِ إِلَى الطَّيْنِ ..

مَدِينَةُ الْوَلِيدِ إِلَى الْطَّيْنِ ..

حَدَّثَ أَبُو الْوَلِيدِ الْوَاسِطِيُّ قَالَ :

حَدَّثَ حَمَادُ الرَّائِيَّةِ قَالَ :

حَجَجْنَا مَعَ أَبِي الْفَرَجِ الطَّيِّبِ حَتَّى إِذَا جَاوَزْنَا وَادِي
الرَّمَّةِ تَشَابَهَتْ عَلَيْنَا السَّبِيلُ فَأَوْجَسْنَا فِي أَنْفُسِنَا خِيفَةً . أَنْ
تُضِلَّنَا عَنِ السَّبِيلِ الصَّحِيحِ . . .

وبينا نحنُ في حيرة المُتَشَابِهِ عليه خرج علينا راجلٌ
فَنِيَّ بعضُ منسأته ، يتوكأ عليها ، وشَيْبُ ما بَقِيَ من شَعْرِ
برأسه ينبىءُ أن شباب العمر ولَّى ، وفي عينيه نَهَمٌ وشِرَّةٌ
يكادُ أن يخفيهما ،

فقلنا : ممن الرجلُ ؟! ..

قال : من ظفار .. وما شأنكم ؟! ..

قلنا : تشابهت علينا السبلُ ...

قال : أدلُّكم ! ..

قال بعضنا : في عينيه ومض الغدر ..

وصحبةُ أمثاله جدُّ خطيرة ! ..

قال آخر : هل لنا من خيار ؟! ..

قال ثالث : نبْلوه .. ونَحْذَرُه ! ..

قال أبو الفرج : يا هذا .. أي دربٍ رمى بك إلينا

وأنت وحيدٌ .. ولا راحلة ! ..

قال : شردت راحلتي ، فقمْتُ أطلبها حتى أكلت
الأرض منسأتي ! . . .

قال أبو الفرج وقد أردفه على راحلته :
أَحْمِلْكَ ، وتدلنا ، على أن نَأْمَنَكَ ! . . .
قال : لا حاجة لي بشيء من متاعِكُمْ ، إنما الصحبة

قال حمّاد الراوية :

سمعتُ فتيان الركب يقولون لأبي الفرج الطبيب :
لقد أردفته على راحلتك وشاركته زادك ، وهو يقع
فينا وسيمتد إليك يوماً ! . .

قال أبو الفرج : وهل يستطيعُ أن يمتد بأكثر مما قَسَمَ
الله له ؟ ! . .

فسكتَ عن الفتيان بعضُ الخوف .

قال حمّاد الراوية :

بعد سُرى ليلٍ طالَ ، جُهدنا ، وغَلَبنا النومُ فما
أيقظنا إلا مسُّ شمسِ الضحى . . . ولَمّا قمنا إلى رواحلنا
افتقدنا بعضَ متاعنا ، ونجبةً تحسن السير على الكثبان
وفي الوديان ، والتمسنا الظفاري فلم نجد له أثراً ! . . . فقد
زَيّن له طبعه سوءَ عَمَلِه . . .

قال قائلٌ : يا أبا الفرج ، ويكأنه الطبعُ غلابٌ ! . . .
قال أبو الفرج : عرفنا السبيل الحق . . وإن يكُ
أصابَ شيئاً من متاعنا فهو عَرَضٌ أدنى ، والله . . .
ولو سار معكم على الطويّة الصافية لوصل إلى بيت الله
الحرام . ولكن فاته خيرٌ كثيرٌ . . .
آتاه الله فرصةً ليرفع عن الطين ، ولكنه أخلد إلى

الأرض فمثله كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ وَإِنْ
تَتْرَكَ يَلْهَثْ ! . . .

قال أبو الوليد :

والله لقد عجبنا من الحكمة كيف تجري على لسان
أبي الفرج ؛ ! . .

وكيف يتأتى له إدراج كلام الله سبحانه فيما يقول بيسر
وبسهولة !! .

حدیثُ الحکم ..

حديث الحكم ..

حدث أبو الأرياف قال :

حدث حماد الراوية قال :

سألت أبا الفرج يوماً وقد هبت ريحُ الصبا :

كم كان حبك « لواحطة » ؟ ! ..

قال :

يا حماد بم تحلم نفسٌ يسكنها الاغتراب ؟ ! ..

بم تحلم روحٌ حيرى تحتسيها الوحدة؟! ..
هل بغير عيني « واحة » يحلو الحلم؟! ..
وهل بغير عبيرها ينتشي الخيال؟! ..
حلمي « واحة » ...
و« واحةٌ » هي الحلم ...
أرضٌ يفرشها العبير والفلُّ والياسمين ...
وتظللها وارفاتُ الكروم الحبلَى بالعناقيد ...
و« واحةٌ » وأنا حلمٌ في خاطر الزمن ...
نعدو حتى ندرك القمرَ قبل أن يختبئ ... فتحلو
لي بين ذراعيها إغفاءةً ، هي العمرُ كلُّه ..
وكلُّ العمرِ إن لم تكن .. عدم ...

قال حمّاد :

يا لحب أبي الفرج كيف يفجر الإحساس ! ..

حدیثُ الشَّہْرِ ..

حديث البُرَر ..

حدّث أبو الطيّب - وكان من خلصاء أبي الفرج - قال :

قبل صفّين كان أبو الفرج يَتَجَرُّ مع رجلٍ من هذيل
أسموه «المُبَرَّرُ» لكثرة ما يجد من تبريرات للشيء
وضده ..

وحين وصلنا الشام في رحلة الصيف وجدنا بضاعةً
زهدَ فيها أهلها تَدُرُّ إذا عُدنَا بها ربحاً مضاعفاً . أراد

المبرر أن يستخلصها لنفسه وأطمعه في ذلك وأعانه
عليه صاحبٌ له قديم .

قال أبو الفرج :

فأهديت له نُصَحَ المشفق المبقّي على المودةِ فما
أغنى . . . فكنتُ في حيرةٍ من أمري فلا أنا أملك القولَ
« لك سبيلك ولي سبيل » ، ولا أنا أملك له السماح بفعل
ما يفعل ولما تنته رحلتنا ولنا في رُبْعنا شركاءُ آمنونا على
أموالهم . . .

فَهَمْتُ على وجهي حتى أدركني الليلُ ، فأويتُ إلى
شجرة وتوسدت عباءتي وقلتُ : أدرك غفوةً ! . . .

قرأتُ آية الكرسي ، والمعوذتين ، وأدعيةً أحفظها ،
وأدعيةً فتح الله بها عليّ ، أستجلبُ النومَ حتى أدركتني سِنَّةٌ
نعاساً فرأيت فيما يرى النائم أنني أُمسك قارورة أريد أن
أشربَ منها فيمنعُ خروجَ الماءِ ضيقُ عُنُقِها .

وانتهت من نومي أول رؤياي في كيد هذا الهذلي ،
فالقارورة واسعة القعر ، ضيقة العنق ، لا تسمح بخروج
شيء إن سمحت إلا أن يُغيّر شكله ليتلاءم مع ضيق عنقها ،
فكيف أخلص من علاقتي مع هذا الهذلي - القارورة - وأنا
رهين محبسين : شراكتي معه ، ونصح أبي إذ قال لي
يوماً :

يا بني إن الله كما تعبّدنا بالغاية تعبدنا بالأسلوب فكما
يكون الجوهر مهماً ، فالشكل يُهم ..
يا بني لا تفقد شكلك فتضيع عند الله ، وبين الناس ...
يا بني إن الجوهر الحسن ينمّ عنه الشكل الحسن .

قال أبو الفرج :

وأعاني الله على الهذلي فارعوى ... وأصبنا في
تجارتنا ربحاً وفيراً ...

وسكتَ عن هذا المبررِ الطمعُ . . .
وأطال لحيته . . .
وما زال يبررُ . . .
ولكنه يبكي . . . حتى تَبَلَّ شعراتُ هذه اللحيةُ .

حديثُ الوُضوءِ ..

حديث الوضوء ..

حدّث نصر بن أبي غالب قال :

اعتمرنا مع أبي الفرج الطيب ، وجلسنا بعد صلاة
العصر في حلقةٍ بالحرم يتدارسون فيها استنباط الأحكام
الفقهية فقال الشيخ :

إن أكل لحم الجزور يوجبُ الوضوء لحديث

رسول الله عليه الصلاة والسلام كما رواه أحمد بن حنبل :
« من أكل لحم الجزور فليتوضأ » .

قال أبو الفرج الطيب :

يا شيخنا إنما كانت هذه حادثة مفردة ، حكمها الشرعي خاص بها مرهون بوقتها فقد أكل الرسول عليه الصلاة والسلام لحم جزور مع صحابة له ، وقد حان موعد الصلاة وسمع المصطفى صوتاً أحدثه أحدهم فقال ما قال ليقوم الجمع فيتوضأ دفعاً للخرج عن صاحب الصوت .

فقال أحد الحضور مستخفاً بأبي الفرج :

ياله من استنباط يعجز عنه جهابذة الفقهاء وأخذ يضحك ضحكاً شديداً أحمرّ منه وجهه فأخرج هواءً أزمرّ ، فوجم ! . . .

فالتفت إليه أبو الفرج وقال :

وَأَنْتَ وَجَبَ عَلَيْكَ الْوُضُوءُ وَلَوْ لَمْ تَأْكُلْ لَحْمَ
جَزُورٍ .

فَاعْتَرَاهُ الْخَجَلُ وَانْصَرَفَ .

قال نصر بن أبي غالب :
رحم الله أبا الفرج كم كان حاضر البديهة .

.. حدیثُ لکھن

حديث الكفن ..

حدّث أبو محمد القاضي قال :

مات في الحيّ فقيرٌ يدعى « أبو عمر » ، فقام إمام
المسجد بإجراء الغُسلِ ، وأحضر رجلاً من أقصى المدينة
ثوباً أبيضَ جديداً صنعناه كفنّاً . . .

وجاءت امرأته تطلبُ أن يُريها تنظر إليه مرةً أخيرة .
فلما دخلت عليه أشرق وجهها بنورٍ غريبٍ ، وقالت وهزت
رأسها :

وأخيراً يا أبا عمر تلبسُ ثوباً جديداً . . . وحقّق الله
لك أمنية طالما تشهيتها ! . . .

وسكنتُ ، وسكتتُ ، ووجمتُ ، وخرجتُ . .

قال أبو الفرج الطيب :

وإلى اليوم تقول نسوةُ الرِّبعِ إنّ أمّ عمر ساهمةٌ
لا تتكلم . . . ولكنها كلما مرت بالحي جنازةٌ تخط بعصاها
على الرمل خطأ كأنها تعدُّ الأثواب الجديدة ! . . .

مدىُّ الإبحار في عيون
سُبحان الخالق ..

حديث إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
سُجَّانَ الْخَالِجِ

حدّث عبد الله بن إسحاق قال :
سأل بعض فتیان الربعِ أبا الفرج الطيّب في شأنه مع
« واحدة » فقال :

إنني كورت عمري كله ووضعتُه بين يديها . . .
أبحرت في عينيها الأوسع من بادية والأعمق من بحرٍ
ونسيْتُ كلّ شواطئ الدنيا . . .

وأنتم لا تعرفون معنى الإبحار بلا عودة في عيونٍ

« سبحان الخالق »

فإن الذي يرى عينها ولا يُسَبِّحُ الخالقَ . . .

ويبحر فيهما ولا يتحول إلى ضوءٍ

فهو طحلبٌ! . . .

فكيف تعجبون إذا تحولتُ إلى ضوءٍ يسافر

إليها؟! . . .

و« واحدةٌ » خارجةٌ لتوّها من أساطير حكايا العشق

تحمل على مبسمها ولادة فجر الفرح ، بكل نقائه ،

وعفويته ، وسحره! . . .

لا تتعجبوا! . . .

ف« واحدة » سرقتني في لحظة فريدة كما الموت
والولادة ، لتسافر بي إلى غابات الأحلام البنفسجية على
أجنحة عطر أنثوي تتجمع فيه كل حكايا الشوق التي لملمها
ليلُ بادية السماوة منذ كان على الأرضِ عشق ...

روى أبو الأرياف مثل ذلك ولكنه أضاف أن أبا الفرج
قال :

كانت راحلتي تأخذني في دروب العبث حتى
تقاطعت الدروب لأجد « واحدة » قدرني ...

فإذا العمرُ واحدة خضراء ...

وإذا الليلُ به من الأحلام ما يزيد على مساحة
الأجفان ...

وإذا القلبُ يضيقُ على نبضاته ...

وإذا أصابعي تتحول إلى عشر فراشات تطرز جدارَ
العمرِ بالوانٍ لم تخطر على بالٍ . . .

قال أبو الفرج - ورواه حمّاد الراوية أيضاً - :

قلتُ لـ « واحة » يوماً كلاماً وقالت لي كلاماً اكتشفتُ
بعده أنها شاعرةٌ أيضاً بعد أن كنتُ أظنها جميلةً فقط ، فلقد
كانت كلماتها تفوحُ برائحةٍ من تعشقُ . . .

واكتشفتُ أيضاً أنها اصطدمت بعشقي فصارت
كذلك . . . واصطدمتُ بعينها فعرفتُ حجم الحبّ الذي
يمكنني أن أهبهُ . .

ولقد سألتنا أبا صياح الحكواتي بمقهى النوفرة إن كان
يعرف الكلام الذي دار بين أبي الفرج الطيب و « واحة »
قال :

نعم . . . فقد روى أبو الخطاب بن يحيى بأن
« واحدة » قالت لأبي الفرج :
قبلك يا أبا الفرج كنتُ أبحثُ عنكَ . .

قال : وأنا . . . كنتُ على يقينٍ بأنني سأجدك . .

قالت : حين صرْتُ كاعباً حَلُمْتُ بأن لا تظلَّ عربية
أيامي خاوية الأحلام ، فكنتُ يا أبا الفرج من ملأها
بأروع حلم . . .

قال : كنتُ يا « واحدة » أعرف عن العيون كثيراً . . .
وعن القلوب كذلك ، ولكن ما لم أكن أعرفه قبلُ بأن
القلبَ يتحولُ إلى حقلٍ عندما تصبحُ العينُ محراثاً . . .

قالت : كانت مصادفةً ستظل ترقصُ حلماً في
خاطري أتاحت لقيانا . . .

قال : إن الله خلقك نغماً ، وحين أراد لذلك النغم
أن يُعزَفَ كنتُ المزمارَ ، فكان لابد أن نلتقي . . .

قالت : حين نفترق كيف تمر الساعات ؟! . . .

قال : عيناى بجعتانِ تبحرانِ كلَّ صباحٍ إلى حيث
تكونين ، وقلبي فراشةٌ تعلّقُ بوتدٍ على جدار الزمن
وتظلّ ترفرف شوقاً إليك ،

وأصابعي خمسةٌ جداولٍ تنزف شوقاً . .

وأعصابي حبالٌ مشدودةٌ ! . .

وشراييني . . . شراييني فقط تظلّ مسترخيةً لأنها

طرقك الوارفة تروحين بها وتغدين . . .

قال أبو الخطاب : لم تنبئ بنت شفة ، وقامت
تسير كضوع المسك ، فلما بُعدت عنه أقل من مدى نظره
هتف : « واحدة » . . .

ألوت نحوه فقال :

أتدرين يا « واحدة » . . .

في ليلة من ليالي بادية السماوة قمراء ، عليّة
كالنسيم وقفت على شرفة الدنيا ، وأخذت العمر ، حفنة
من النبض . . . وزرعته . . . في عيون « سبحان الخالق » .

قال أبو الخطاب :

ترقرت في عينيها سحابة من الوجد . . .

وكالحلم تابعت السير . . .

حديثُ الطَّعْنِ ..

مَدِينُ الطَّعْنِ ..

حدّث أبو الفرج الطيب فيما يرويّه عنه عبد الملك
ابن الحكم قال :

ظننت « واحة » شهراً مع أقارب لها يُخْضِرُونَ
عروساً من أطراف البصرة فأوحشني غيابها فكتبْتُ لها :

« واحة » الحبيبة :
الليالي طويلةٌ طويلةٌ ، ومالحةٌ مالحةٌ . . .

طويلةٌ كدهر . . .
ومالحةٌ كبحر . . .
والأيامُ تُمطرُ ضجراً . . .
فلا أملك إلا أن أطلق لنبضي العنان ليسري نحو
الشرق حيث أنت . . .
فأستحيل شفافاً كأساطير الحزن . . .
وتركضَ خيالاتي كسربٍ من الآرام البريّة . . .
وأعانقك على البعد . . .
فينتشر الشوق إليك في ذراتي ، كما تنتشر الشائعاتُ
في القبيلة . . .
سريعاً وخاطفاً ،
قوياً ومهيماً . . .
فأجدني أتحولُ إلى كتلةٍ من الحنين إلى العينين
الأوسع من بادية ،

وإلى القَدّ الذي يحمل كلّ طراوة الربيع ،
ويخترقني الشوقُ كرمحٍ فأهتفُ بكل ذرةٍ فيّ :

« واحدة »

فيهبط عليّ الحزنُ كطارقٍ ليلٍ . . .
يحملُ لي زوادةً من بكاء . . .
فأنحني على بئر أعماقي ،
وأستحضرُك . . .
وحين تبدين أمامي أتحوّل إلى خيطٍ من ضوء ،
يسافر إلى عوالمٍ لا متناهية من . . .
من شيءٍ يَصْعُبُ وصفه . . .
فهو جميلٌ كحلمٍ . . .
غامضٌ كسحرٍ . . .

شفافٌ كروحٍ . . .

مهيمٌ كقدرٍ . . .

رائعٌ كما أنتِ . . .

« واحدةٌ » يا حبيبة . . .

يقولون إن الحب أعمى وأنا حبي مبصرٌ ذو عينين ،

ومدرِّكٌ ذو بصيرةٍ ،

فأنا بخطي ما اعتراها الاضطرابُ إليك مشيتُ ،

وبتصميم ما ساوره الترددُ فيك انعجتُ . . .

ففي حبكِ أنا واقفٌ بملءِ إرادتي ما وقعتُ أبداً . . .

« واحدةٌ » يا حبيبة :

غيابك سهمٌ في خاصرتي . . .

وليلي طويلٌ كأزل ،

وقلبي وحيد كتائه في بيدااء . . .

فمنذ غيابك حولني الحنينُ إلى دمعَةٍ معلقةٍ على بوابة
الليل . . .

والأشواق تصهلُ في فيافي روعي فأذكرُ كلَّ الذين
يعشقون وأبكي عنهم . . .

وباستسلام سنبلةٍ لحدِّ المنجل . . .

أمنحُ عينيك بكلِّ الرضى ما تحصد مني :

من رقةٍ حزينٍ . . .

وروعةٍ حلمٍ . . .

وميلاد نبضٍ جديد . . .

« واحدة » الحبيبة :

لقد تركني غيابك بين الالتياح والجنون . . .

على أسوار قلعة الذكرى . . .

ذكرى اللمسات المختلسة . . .
والنظرات الخجلَى . . .
والقبلاتِ المسروقة . . .
التي ترحلُ في نبضي كل ثانية . . .
فيهبّ شوقي نحو ضفافك مثل طيور الغُدران . . .

كذلك رواه أبو المعالي . . .
ولكن حمّاد الراوية قال : إن السطر الأخير كان :

عندما أنظر إلى عينيك وتتحوّلانِ إلى بحر من السحرِ
يتحوّل قلبي إلى سمكةٍ ضالّةٍ . . .

قال حمّاد : هذا ما قاله أبو الفرج الطيب .

حديثُ الصُّندوقِ ..

مَدِينَةُ الْحَمْدِ ..

حدّث حمّاد الراوية قال :

عندما ماتت واحة لبثنا أحقاباً ، ثم أخرجت أمّها
صندوقاً كان لها وجدنا فيه قراطيسَ كان يرسل بها أبو الفرج
الطبيب جاء في بعضها :

واحةُ الحبيبةُ :

أي قوة يحملها ذلك الضعف النسائي الذي ينسابُ
من بين أهدابٍ، يحلو لي أن أتكوم عليها وأغفو...
قولي لي كيف سكبَ نيسانُ في عينيكِ؟!..
كيف تجمّع سحرُ صبايا نجدٍ فيهما؟!..
من الذي علمك كيف تشرخين قشرة مخي؟!..
وتسافرين في تلافيفه؟!..
كيف استطعت أن تأخذي قلبي إلى قمة بركان
النبض؟!...

« واحدة » الحبيبة :

منذ ليالٍ سبعٍ لم أركِ وما زالت على ثيابي روائحك
البكر...

ومن بين طياتِ ردائي تخرج لي همهمات أصابعك
التي تحكي لي لغةً يعجز عنها رواة الأشعار...

وعلى عينيّ ما زالت آثارُ قبلةِ بكرٍ خجلتِ أن تضعيها
على شفتيّ! ... يحلو لي أن أمّرَ أصابعي لأتحسسها على
جفوني ، فأرتجفُ ، كعذراءٍ أكتشفُ أنوثتها للتو ...

« واحدة » :

ليتك تستعيرين عينيّ لتكتشفي كيف أراك! ...
يا قريبةً على مرمى صرخات شوقي ...
يا بعيدةً على امتداد حدود صحراء الهفوف لتائه
عطشان؟! ...

ألم تعديني ألا يطول غيابك؟! ..
أوعود الجميلات كلها ظنون؟! ..
أم تراني وحدي الذي يشواق؟! ..

قال حمّاد الراوية وجاء في بعضها الآخر :

قلبي الذي هو كلّ قوافل الحب . . .

ومواكبه . . .

وأعياده . . .

ونبضي القادم من عصور الشوق المنقرضة . . .

وراحلتي التي اعتادت السرى في صحارى العراء
والغربة . . .

ومضاربي في بوادي الريح والخيال . . .

وعيناي المسكونتان بلهفة كالعناق . . .

ما كانت إلا رحلة إسراء إلى عينيك ، النابضتين بكل
ذلك الثراء والزخم الشاب . . .

فأنت لست كأني يمّر . . .

بل أنت ، أنت من شطرتني إلى نصفين . . .

نصفٌ يشْتاقُ إليك ...
ونصفٌ يتعذب من أجل النصف الذي إليك
يشْتاق ...
كلّ ليلةٍ أختارك من بين جميع نساء العالم ...
وأخذك حلماً بين أجفاني ... وأغفو ...
فتراني أسافر بمراكب من عبير ، على لججٍ من
الضوء ...
وتراني أركضُ بفرح الأطفال على أشعة
الأصيل ...
وتراني أتواتر حباً ...
فقبلك كنتُ أنا ،
ومعك صرتُ أحلم ...
جئتُ فإذا زمانِي خارج الزمانِ ...
وإذا الجسدُ يتمرّد على قوانين « جنديسابور » فتصبح

شرايينه جداول من الحنين . . .
وأعصابه تبثُّ رسائل الشوق . . .
وإذا الدنيا تتغير . . .
فالقمرُ يختبئ بين أهدايي . . .
والشمسُ تشرق من أضلعي . . .

عيناكِ .. ما سرهما ؟! ..
حتى تجعلاني أرى العشبَ غاباتٍ من السحرِ ؟! ..
والأغصانَ دروباً إلى واحاتِ الأحلام ؟! ..
عيناكِ .. ما سرهما ؟! ..
فمنذ عرفتُهما لم تمر لحظةٌ إلا وهتفتُ شراييني
بهما ..

كتعويذةٍ من وجعِ الاغتراب المملوء ضجراً . . .
فيالهما من ساحرتين تجعلاني أحيا فقط لأقفَ على

شرفة بادية السماوة وأهتفُ بكل ما في القلب من
شوقٍ :

« واحدة »

فتتفجر الحياة في الرمال . . .

قال حمّاد الراوية :

فلم أملك دمعَةً سَحَّتْ . . .

استحييتُ فمسحتها بِكُمْ ثوبي . . .

حديث
المُبَشِّرِينَ بِالْطَّرْدِ مِنَ الْجَنَّةِ ..

حديثُ البُشرى بالخروج من الجنة ..

حدّث أبو سعيد التميمي قال :

أصابتنا سنونٌ عجافٌ ، أذابت أولاها الشحم ،
وكادت الثانية أن تأتي على اللحم ، وتماوج الناسُ بعضهم
في بعض ، وكَثُرَ الهرجُ والمرجُ ، فخرج علينا أبو الفرج
الطبيب يوماً فقال :

أيها الناس ، أصابكم ما تعلمون ، فاتبعوني أَهْدِكُمْ
إلى وديانِ الخصب ، وجناتِ الفواكه ،

قالوا : نفعل ، ولكن يا أبا الفرج اذهب واستطلع لنا
فلا نذهب إلا على بَيِّة ...

قال أبو الفرج : فليخرج إليّ منكم تسعة رهط
يصلحون ولا يفسدون .

فخرجوا إليه فقالوا : يا أبا الفرج إن بجوار الجنات
كاهناً لا نعرفه ، ونحنُ كانت لنا مع بعض الكهنة
قصصٌ لا تطرب فاذهب أنت وعزمك فكلماه ، إنّا
هاهنا قاعدون .

قال اثنان منهم : كونوا عصبّة لا تفرّقوا ! ...

قالوا : إنما سحر كما فأنتما لما يقول مصدقان ! ...
قال أبو الفرج :

كأني بكم مثل بني إسرائيل ...

وأخذ عصاه وغاب ...

قال أبو سعيد التميمي :

فلما ذهبت لنا أيام عاد أبو الفرج إلى التسعة
قال : رضي الكاهن أن يجاوركم على أن يُثْمِنَكُمْ^(١)
مما تحصّلون ! ...

قال قائلهم : إن هذا الكاهن بادي الطيبة ...

قال آخر : إنّما طبعه ! ..

فإذا تمكن ، على حقيقته رأيتموه ...

قال أبو الفرج :

فَسِرْتُ بهم حتى أنزلتهم وادياً خصيباً به أعنابٌ
ورمانٌ ، وتين ، ورُطْبٌ كثير ...

قال أحدهم : نعرفُ هذا الوادي ، ونحن قصدناه
قبلك فنحن أصحابه دونك ! ...

قال ثاني : ما نرى من فضل لك علينا ...

(١) يأخذ الثمن .

قال أبو الفرج :

فما هي إلا أيامٌ حتى نسوا نصيباً مما عَرَفُوا . . .

وتناسوا الذي لم ينسوه . . .

ووقع بعضهم في بعضٍ واستطابوا الغيبةَ والنميمةَ ،
واشتهى كُلُّ منهم ما بيد الآخر ، على كثرةٍ من
الرمان والتين والتمر والعنب . . .

فلما أردت أن أنهاهم قالوا :

يا أبا الفرج ما نراك تريدُ إلاَّ علواً في الأمرِ ، أو تكون
لك الإمارة دوننا ، وما نحن لك بمؤمنين . . . فخرج
عنا إن شئت ، ولولا مودةٌ سابقةٌ لرجمناك . . .

قال أبو الفرج :

فتركتهم وعدتُ إلى أقوامهم أُحاولُ معهم فقالوا :
لا حاجةَ لنا بك ولا برهطك التسعة ، كفرنا بكم
جميعاً ! . . .

وارتحلوا ! ...

فعدتُ أحاول الإصلاح ، فأتانا الشيخ النجدي الذي
ظهر لقريشٍ في بدرٍ وقال لهم أنا لكم جازٌ ، وقال لنا مثلما
قال لقريشٍ ونكص على عقبيه كما فعل من قبلُ ...

قال أبو سعيد التميمي فلقيتُ أبا الفرج بعد أن ذهبت
أزمانُ فسألته في شأنه وشأنهم فقال :

يا أبا سعيد مكتوب في التوراة أنه من ينظر إلى امرأة
أخيه يطرد من رحمة الله طرداً وكلهم أطلال النظر إلى امرأة
أخيه ...

وَمُنَزَّلٌ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ
جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ ولقد فرَّقوا أنفسهم شيعاً كقراطيس
اليهود ، وذهبوا إلى الكاهن فرادى يفتersh أحدهم عرض

أخيه ويأكل لحمه ولا يكره نفسه حتى تلذذ هاتيه الكاهنُ بما
قالوا ونفثَ فيهم من سجعهِ فله يسمعون . . .

وإذا لقوني فرادى اعتذروا ، وإذا غبتُ عابوني ؛ فلما
أعيتني الحيلُ ، ووجدتُ إصلاحهم خفقَ سراب ، أخذتُ
عصاي وقلتُ لأحسنهم :

« بشرهم بأنهم من الجناتِ لابد مطرودون ، والتين
والرطب والرمان والأعناب من الساعةِ إلى أفواه غيرهم
تصير » .

قال أبو الفرج : بلغني أن الكاهن لما سمع نُذري
قال :

ما أهديكُم إلا ما أرى وما أهديكُم إلا سبيلَ
الرشاد . . .

قال أبو الفرج :

فهو منذ اليوم يعرضهم على الذل غدواً وعشياً

ويقول :

الآن طاب لنا العيش . . .

حدیث الحُب ..

حديث الحب ..

حدّث حمّاد الراوية قال :

كان لأبي الفرج الطبيب بستانٌ على نهرٍ دجلة يدعونا إليه نستطيب لياليه ، وفواكهه ، وأنساً نجتمع عليه ، حتى إذا طاب لنا المقامُ ، ولذّ لنا الكسلُ ، وحُبّبَ إلينا اللهوُ ، طرّقنا دروب الجمالِ وانتشينا بالشعر ، والمناظرة ، والغناء ، والموسيقى ، والحكايا ؛ . . .

وأعجبها ما كان من ليلة حديث الحبّ حيث كانت

ليلةً بها شيءٌ من الرّوحِ والريحانِ ، تدلّني فيها القمرُ سراجاً
 منيراً ، سكب على صفحة دجلة نوراً مذاباً يعكسه لألاءُ
 كلّما داعبته نسمةٌ تمرُّ عليه كما تمرُّ يد الأم على خد ولدها
 الرضيع ، جاوبُهُ لألاءُ بأرجاء أرواحنا لا نملك معه إلا أن
 نُخرِجَ تنهيدةَ رضاءٍ ، وَخَدَرٍ ، وانبهارٍ ، وانتشاء ، . . . مدّ
 لنا فيها أبو الفرج أطيب الطعام من شواءٍ يَقَطُرُ ، ولحمٍ طيرٍ
 كلما تناولتَ منه اسْتَخْرَجَ منك الشكرَ لله دون أن تدري ،
 وشرابٍ من مزيجِ فواكهٍ حين تأخذُ منه الرشفه يُخَيِّلُ إليك
 أن لسانك يتبعُهُ إلى أحشائك فحلاوة مذاقه تدومُ ،
 ولا تفارق .

وبينا نحن في غمرة السُّكْرِ الحلالِ همس أبو الفرج
 كأن صوته نايٌّ في صفاء ليلة البدر قائلاً :
 يا حمّاد أتدري ما الحب ؟ ! . .
 قلت : الحب كما يقول الشاعر :

إِنْ نَطَقْتُ لَمْ أَنْطِقْ سِوَى اسْمِكُمْ
وَإِنْ سَكَتُ شَغِلْتُ عَنْكُمْ بِكُمْ

قال : زدني .

قلت : كما يقولُ مجنون ليلَى :
أَعِدُّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ
وَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا لَا أَعِدُّ اللَّيَالِيَا

قال : زدني .

قلت : كما يقولُ مجنون ليلَى أيضاً :
بَكَتْ عَيْنِي الْيَسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتَهَا
عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحَلَمِ أَسْبَلْتَا مَعَا

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحُمَى ثُمَّ أَنْشِي
عَلَى كَبْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا

فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحُمَى بِرَوَاجِعٍ
إِلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِكَ تَدْمَعَا

قال : زدني .

قلت : كما يقولُ المجنون أيضاً :
كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُغْدِي
بَلِيلِي الْعَامِرِيَّةَ أَوْ يَرَاخُ

قِطَاةً عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ
تَجَاوِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

قال زدني :

قلتُ : كما يقول عَنترَةُ :

ولقد ذَكَرْتُكَ والرماحُ نَواهلُ مني
وبيضُ الهنْدِ تقَطُرُ من دمي

فَوَدَدْتُ تَقْبِيلَ السِيفِ لَأَنها
لَمَعَتْ كَبَارقِ ثَغْرِكَ المُتَبَسِّمِ

فأطرق أبو الفرج ساعة ثم قال : الحبُّ يا حمَّاد كما
يقول ابن القباني :

عشرون عاماً فوق درب الهوى
ولا يزالُ الدربُ مجهولاً

فمرة كنتُ أنا قاتلاً
وأكثر المراتِ مقتولاً

عشرون عاماً يا كتابَ الهوى
ولم أزلُ في الصحيفة الأولى

قال حمّاد الراوية : فقلت على استحياء : لم أسمع
بابن القباني هذا من قبلُ .

قال أبو الفرج وضحك :
لا تعرفه يا حمّاد اسمه نزار ، وسيخلق بعد أكثر من
ألف سنة مع شاعر آخر يسمى « إيليا أبو ماضي » حيث
يقول في بلادٍ تقع خلف بحر الظلمات :

القلبُ إلا بالمحبّةِ منزلٌ متردّمٌ
هي للجراحةِ مرهمٌ ، هي للسعادةِ سُلّمٌ
هي في النجومِ تألّقٌ ، هي في الحياةِ تَرْنَمٌ
هي أنفُسُ العشاقِ في غسقِ الدجى تَبَسَّمُ

قال حمّاد الراوية وقد أخذني سحرٌ وجمالُ الشعرِ

فرددت :

هي أنفُسُ العشاقِ في غسقِ الدجى تَبَسَّمُ

فمَدَّ أبو الفرج صوته كأنه الحداء :

سرُّ الهوى حُلْمٌ في طيّهِ أملٌ
يُزجي الرؤى نَغْمًا إيقاعُهُ قُبْلُ

قال حمّاد الراوية فقلت : هذا من إنشائك يا أبا
الفرج ؟! . . .

قال : نعم . . .

ثم صَفَّقَ بيديه فجاء الخادمُ ، فألقى إليه أمره :
« دع الجارية تغنينا ما تعرفُ عن الحب » . . .

فما هي إلا هنيهةً حتى صدحت بعدها موسيقى ،
لا أعذب ولا أحلى ، ولا أسنى ، ولا أشهى ، ولا أجمل ،
ولا أطلا ، أَمَالَ أبو الفرج رأسه معها يمنةً ويسرى . . .
ثم انساب صوتُ الجارية كأنه مزمارٌ من مزامير
السَّحَرِ تغني والشجْوُ يقطرُ من صوتها :

هلْ رأى الحبُّ سُكاري مثلنا
كم بَيْننا من خيالٍ حَوَلنا

وَمَشَيْنَا فِي طَرِيقِ مُقَمَّرٍ
تَثْبُ الْفَرْحَةُ فِيهِ قَبْلَنَا

وَضَحِكُنَا ضَحْكَ طِفْلَيْنِ مَعًا
وَعَدَوْنَا فَسَبَقْنَا ظِلَّنَا

قال حمّاد الراوية : فلم أتمالك أن صرختُ : الله ،
الله ، فأومأ لي أن اصمتُ . . .

فتابعْتُ ، وغنت ، وصدحت ، وأجادت . . .

ولم نزل كذلك في نشوةٍ أين منها نشوةُ السكارى ،
ملكْتُ علينا أقطارَ أنفسنا حتى ذَهَبَتْ عَنَّا سَاعَةٌ ما عدْتُ
بعدها أملك نفسي ، فتمددت على ظهري حين أخذ الطربُ

مني وحركت يديّ في الهواء ، انتشاءً ، وهياماً ، والتذاذاً
وأنا أردد دون وعي مني :

فُديتِ النفسَ زِيديني
فُديتِ النفسَ غِنيني
فُديتِ النفسَ فاسقيني

حتى إذا هدأت الجاريةُ وتمالكتُ نفسي ، جَلَسْتُ ،
ركبتي إلى رُكبةِ أبي الفرج ويدي على فخذه وأنا
أقول :

نَشَدتَكَ اللهُ إلا أُرِيتَنِي أنْظُرُ إلى هذه الجارية . . .
قال أبو الفرج وقد أزاح ستارةً كانت تفصلنا عن
الجارية فظهر صندوقٌ مَعْدَنِي صغير :
هذه هي الجاريةُ ! . . .

قلتُ : أتستهزئُ بي ؟! ...

قال : لا والله ، ولكنها تدعى أُم كلثوم ، وهي من
زمانِ شاعرينا « ابن القباني » و« أبو ماضي » وهذا
الصندوق يدعى آلة تسجيلٍ مخزوناً بها صوتُها ! ...

قال حمّاد الراوية : قلتُ وقد اعتراني العَجَبُ :

وكيف ذاك يا أبا الفرج ؟! ...

قال دون أن يلتفت إليّ :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

ثم التفت إليّ وقال .:

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

فهلاني ما سمعت ! ...

حديثُ البحر ..

حديثُ النحر ..

حدّث أبو الفرج الطيّب قال :

التبس عليّ أمري حيناً من الدهرِ ، بعد أن طَلَقْتُ
جنديسابور وأهلها ، وأعلنتُ عليهم كفري بهم . فارتحلتُ
أبتغي راحةَ نفسي فانتَهَيْتُ بي ترحالي إلى بلاد الروم ...
ولَزِمْتُ سهلاً يجاور البحر يرتاده الناس طلباً
للاستجمام ... في ركنٍ قصيٍّ منه صُخَيْرَاتٍ لا يؤمها

أحدٌ ، كان يَطيّبُ لي أن أجلس على إحداها ، أراقب ذلك
المخلوق العجيب :

« البحر »

أُسَرِّحُ عليه نظري فيرتدُ حسيراً ، فأرجعه إلى الموجِ
الذي يَرْتَطِمُ بالصخرة التي أجلس عليها فيتناثر رذاذاً ،
ويرتد معظمه خائباً كمن يكتشف أن لا قدرة له على تغيير
قَدَرِهِ . . .

أجلس الساعات الطوال أبثُّه حزني بصمتٍ ، ويصغي
إليّ بصخبٍ ، حتى يلفني الظلامُ الذي كان يثقبُهُ أهلُ تلك
البلادِ بأسْرِجَةٍ صفرٍ تزيد حزني حزناً . . . فألملمُ بقايايَ
المتناثرة ، وأحملها إلى حيثُ أحاول أن أغفو . . .

حتى جاءتني يوماً شقراءُ لا يشوب بياضها إلا بعضُ
من نَمَشٍ ، تحملُ زَقَّ خمرٍ ، تمشي على وقاحةٍ ، تقول :

هل لك فيه ، أوفى ؟ ...

قلتُ : أبغى ؟ ...

قالت : لا ... ولكني أثارني تأمُّلك ، وأغراني
صمَّتكَ ، فاشتيتُكَ .. وما كنتَ لتشتري من خمرتي
لتذهبَ بصحوكَ ، وما كنتَ تنظرُ إليَّ أخطرُ حين تتولى إلى
صخرتكَ ، فأغريكَ بما تغري به النساءُ الرجالَ ! ...
فرققتُ لها ،

وقلتُ : تعالي ، وجالسيني ، نتحدثُ ...

فأقبَلْتُ ، وفتحت زقَّ خمرها ، وجعلتهُ على
رأسها ، حتى أفرغتهُ ! ... فالتصقت ثيابها بجسدها ،
وفاحت منها ريحُ الخمر ، وهي تجلسُ ملتصقةً بي ..
حتى ذهبتُ عنا لحظاتٌ ونحن صامتان ننظرُ إلى البحر ،
قالت :

يا غريبُ ... في ديارٍ بعيدةٍ ...

أنا غريبةٌ في ديارِي ! ...
وما اشتَهِيتُكَ إلا لأن الغريبَ للغريب حبيبٌ ! ...
ولاذتُ بي لَوذِ الحمائمِ بأيكاتها في يومٍ ماطرٍ ...
ترتجفُ ، فأحسستُ ببرودة ثوبها المشبعِ بالخمِرِ
فَنَضَوْتُهُ عنها ...
وقلتُ : جففيه في الهواءِ ...
وألقيتُ عليها ردائي ...
ولازمتني ، ونَسِيتُ زِقَّ خمرها ،
وكانت تجلسُ تحت قَدَمَيَّ وأنا على صخرتي أنظرُ
إلى البحرِ وتقول : لا أَمَلُ منك حتى تَمَلَّ أنتَ من
البحرِ .
وصرتُ أردفها ورائي ، تقبلُ بالقليل من الزادِ ،
وتحكي عندما أكلمها ، وتحترمُ صمتي فتجعله
صَمَتَهَا ! ...

حتى إذا ذَهَبَتْ لي معها أحقابُ بَتُّ أحداثِ نفسي
وأقول :

إن كيدهن عظيم . . .

فصرتُ أفارقُها ، لا يردني عليها إلا الطعامُ أو وطأةُ
الغربةِ فأقولُ :

هو جوعُ الجسدِ ! . . .

أو نهَمُ الروحِ ! . . .

..... فأذهلُ . . .

وتواترَ ذهولي . . .

ثم كَثُرَ انصرافي وذهولي عنها ،

حتى ذهلت عنها ذات يوم ، ودخلت الليل بفرسي ،
وشاعت في أبعاد نفسي ساعات من عمري لا أدري
لها عدداً ، حتى أدركت مطلع الشمس في بادية
السماء . وأجهدت السير ! . . .

حتى أجهدتني الهاجرة ! . .
فتوليت إلى ما حسبتُه ظلاً ، وفي خاطر دعاء نبي
الله موسى :

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

قال أبو الفرج :
وكان ذلك بداية معرفتي كيف تتولد المسرة حين
ترقى الروح في معارج الفناء .

الفهرس

٧.....	الإهداء.....
٩.....	مقدمة . . . « جرس يعلن عن القدوم »
١٧.....	مدخل.....
٢١.....	١- حديث الطب.....
٣٣.....	٢- حديث الحكمة.....
٤١.....	٣- حديث المناجاة.....
٤٧.....	٤- حديث الموجدة.....
٥٣.....	٥- حديث البكاء.....
٥٩.....	٦- حديث السرور.....
٦٥.....	٧- حديث الضوء حين يصلي.....
٦٩.....	٨- حديث الموت الأول.....

- ٧٧ ٩- حديث الموت الثاني
- ٨٣ ١٠- حديث واحة
- ١٠١ ١١- حديث الإخلاص إلى الطين
- ١٠٩ ١٢- حديث الحلم
- ١١٣ ١٣- حديث التبرير
- ١١٩ ١٤- حديث الوضوء
- ١٢٥ ١٥- حديث الكفن
- ١٢٩... .. ١٦- حديث الإبحار في عيون « سبحان الخالق »
- ١٣٩ ١٧- حديث الطعن
- ١٤٧ ١٨- حديث الصندوق
- ١٥٧ ١٩- حديث المبشرين بالطرد من الجنة
- ١٦٧ ٢٠- حديث الحب
- ١٨١ ٢١- حديث البحر

إن هذه النصوص ليست
رواية، ولا قصة، ولا حوارات،
خارجية أو داخلية، كما أنها
ليست شعراً، وإنما هي نصوص
تتجسد فيها ماهيات هذه الفنون
كلها، لا بل إن فيها ألواناً مستلّة
من عالم الفن التشكيلي، كما
فيها موسيقى مأخوذة من
الغدران، وحفيف الشجر،
ورنين الأساور، أو همس عيدان
القصب؛ تلك الماهيات هي التي
أعطت لهذه النصوص وجدها،
وروحها العاشقة الولهي التي
أُتعبها الدوران، والتذكر،
والاستعطاف... بل التي دوّختها
إيقاعات الكلام.

جسّان حميد